كنتُ ساكنةً كأعمدة الأسمنت التي يصبّها أبي في ورشاته لتدعيم الأبنية ومَنْعِها من الانهيار. تخيّلتُ أن سكوني سيحميني من الانهيار أمامه، من الفزع الذي كنتُ كثيراً ما أحسّه ينفر من عيون أختي الكبرى بعد عودتها من مشوارٍ مّا: محمَّرةً ولاهثةً مثلَ شخصٍ طورد لساعات، تُجيل البصرَ بتوتر حولها بحثاً عن عيون أبي وأمي لتفحص درجة احمرارهما، وطبقةَ الصوت التي يفرضها السؤالُ: «لماذا تأخرتِ»؟.

لم أكن قد جرّبتُ القُبلةَ من قبلُ. أحسستُ كأنّ شفتيّ تتمردان على جسدي محاولتيْن الانفصالَ عن البذلة والمعطف وجزمة المدرسة الثقيلة. كانتا كأنهما الجزءُ الوحيدُ فيَّ الذي ينبض ويرتعش ويهسّ هسيساً يشبه صوتَ تلاطم السنابل حين تداعبها الريحُ في بحرٍ واسعٍ من الحنطة. ولا بدّ أنّه أدرك، إزاء جمودي، أنها تجربتي الأولى، فأمسك ذقني بأصابعه ورفع عينيَّ في مواجهة وجهه وقال لي برقّة: «تخيّلي أنكِ تَمُصّين قطعةَ حلوى بين شفتيْكِ». حاولتُ مداراةَ خجلي وجهلي فقلتُ بسخرية: «هكذا!؟ بهذه البساطة؟!» فقال بجدية وهو يقرّب شفتيْه ثانيةً من وجهي، متجاهلاً لهجتي الساخرة: «نعم بهذه البساطة». عادت السنابلُ تهسّ متلاطمةً في حقل الحنطة الواسع الذي أخذ يمتدّ بالتدريج ليجرف في مداه رأسي برمّته ورئتيَّ والبروزيْن الصغيريْن فوق صدري. راحت أنفاسي تغادرني وتعود إليَّ من جديد بخفةٍ وعذوبةٍ لم أعهدهما من قبلُ. وأحسستُ بأعضائي طريةً ورخوةً كأنني غطستُ في حمام من الزيت. عاريةً وجذلةً ألِجُ بقعةً من الضوء، وأرى ألواناً لأول مرة في حياتي: ألواناً دسمةً وكثيفةً يمكنني لمسُها واعتصارُها بين أصابعي إنْ أردتُ: ألواناً لا تهرب مني بمجرد النهوض في الصباح. راودتني الرغبةُ في فتح عينيه والهمسِ في أذنيه: «أُحبكَ أُحبكَ أُحبكَ»، أن أسأله إنْ كنتُ أستحق ذلك الفردوسَ الذي قادني إليه، أن أشكره ولو بنظرة.

ولكني ما إنْ باعدتُ بين رموشي حتى رأيتُ امرأةً تركض بهلع صوبي وسطَ حقلٍ واسع من الحنطة، عاريةَ الرأس وحافيةً، تدوس على السنابل والأشواك والحصى الصغيرة، وتلوّح مهدِّدةً بعُودِ حَطَبٍ في يدها. شهقتُ متلعثمةً بكلماتي حين عرفتُها: «أمي! كيف عرفتِ؟!». لكنها تابعتْ عَدْوَها نحوي كأنها لم تسمعني، كأنها لم ترني، كأنني لم أكن إلا شيئاً مغبشاً وتافهاً مثل الغبار. وسمعتُ صدى صوتها يتردد عبر الهواء بالدعاء الذي يُطْلِقه الرعاةُ عادةً لإلحاق شاةٍ ضالّةٍ بالقطيع: «هرر هرر هرر»!.

عادت ذرّاتُ الاسمنت للالتحام في داخلي كأنها لم تتفتت وتذروها الريحُ منذ برهة فقط. وشفتاي عادتا مثلما كانتا من قبل: مجردَ خدشٍ غيرِ عميقٍ في لوحٍ من الجليد. وسال بدني نحو البلاط الذي بدا لي بزخرفته المتقاطعة بين الأبيض والأسود مثلَ قوالبَ معدنيةٍ ثقوبُها جاهزةٌ لاستقبال لحم جسدي المصهور. انتزعتُ نفسي من بين ذراعيْه بينما عبقتْ في أنفي رائحةُ عرقي مختلطةً برائحة الفلافل وأنفاس الموظفين ومازوتِ باصِ القرويين. شددتُ المعطف نحو الأسفل، وغمستُ رأسي في ضوء الشارع الباهر، وبدأتُ أجهش ببكاءٍ حادٍّ ومتواصلٍ لم يتوقف إلى هذه اللحظة.

لوس أنجلس

(إلى الصديق احمد عبدالله أينما كان)

- ١ -

أقول: شيكاغو عاهرة يا أحمد... لكنها تعرف كيف تسحر الآخرين وتسرق العشاقَ من وقتهم، أليس كذلك؟ وقد تكفيك بُحيرةُ ميشيغين تتأمل كفّها المفروشة بالأزرق والنوارس حين يرتعش في صدرك ذلك الشيء الذي نُسَمّيه: وَطَناً، أو حين ينهضُ من النوم حلمٌ ما ويحاكي ندى القلب.

لكنّ مأساة شيكاغو، اليتيمة، أنها ليستْ نيويورك. ورغم ادعائها صلةَ التوأمة، ورغم كدّها المحموم في السهر كي لا تنام، فإنّها تغفو على ذراع البحيرة مثل طفلةٍ قاومتْ نعاسَها ثم استسلمت للنوم...

أما نيويورك فدائمة الترقب، مشدودةٌ مثل قوس تأهُّب، مثلَ فرسٍ يقظة في انتظار ما لا تعرف.

تُرى.. من سمّاها بالمدينة التي لا تنام؟ مَنْ قال إنّها تأكل عاشقيها وتلقي بهم في بَطنِ عتمةٍ لا آخر لها.. مفتوحةٍ على مشهدِ الفراغ الذي لا ينتهي إلاّ بهاوية؟

وماذا سيقول فينا الآخرون حين نُعلن أنّ المدينة، رغم كل شيء، كانت حبَّنا الأول؟

سيقولون: هذا تواطؤ مفضوحٌ مع «الآخر». لكنَّ نيويورك لم تكن «آخرَ» أحدٍ... بل كانت وطناً كاملَ الأوصافِ والمعاني والذكريات. قاتلة ومقتولة، أرقٌ، ورقٌ، قلقٌ، هَمٌّ، غَمٌّ، غبارٌ، حطامٌ، وأشياءُ لا نعرفها بعد... أوَليسَ الوطن، أيّ وطن، كل هذا، مُضافاً إليه بحرٌ من الاغتراب؟

هل تَذكُر...؟

كنّا، فيها، ننسى أُمهاتِنا اللواتي يَبِعْن التينَ والزعتر في سوق البلد، كي يُرسلن لنا ثمنَ كتابٍ جديد. وكانت المدينة توزِّع علينا أرغفةَ الخبز وحياتنا ونساءً من النرجس، وتسحب من عمرنا ما شاءت من السنوات، ثم تنزلق من بين أصابعنا، أو تنزلقُ أيامُنا منا، دونَ أن ندري وننام..

لنصحو

وننام

لِنجدها زاهيةً ومتجددةً كعروسٍ خرجتْ لتوّها من ينبوعِ ماء، قادرةً على خداعنا، ورَمْيِنا بالوردِ والحلم لِنَعشقها أكثر. وتواصل هي حراسة الليل من ليلها. ونجد المدينة قد طوَتْ ليلةً من ليالي خريفها الذهبيّ.

قيل الكثير من الشعر في «غرينتش ڤيليج»، وقُتِلَتْ فتاة، بعد اغتصابها، في «سنترال پارك». كنا نغفر لها خطايا ليلة الأمس، نعاتبها بما اقترفت يداها فتقول: «آخر مرة... هذا وَعْد». وكنا نعرف أنها تمدّ لنا لسانها وهي تتوارى خلفها، وتلهث في شوارعها بحثاً عن صيدٍ جديد. ونسير في سراب نهارها بعد أن تُعدّ لنا فطورَنا وتوزِّعنا بالتساوي:

ـ أنتِ على موعدٍ مع فكرة..

ـ حفلة جاز في «بلونوت» مع جو سامپل..

ـ إدوارد سعيد يحاضر الليلةَ في المقهى الإسباني.

ـ تركتْكَ لأنها تحبك.. Fuck her.

ـ تذكرة مسروقة لمسرحية «البؤساء». نصف السِّعر يكفي.. هات.

ـ هل جرّبتَ نبيذ تشيلي؟ تذوقْ يا دهش..

وتدورُ الأرضُ حولَ المدينة، وتدور المدينةُ حول المدينة، وندورُ نحن حول ظِلِنا.

ـ ٢ ـ

وكانت المدينةُ توزِّعُنا على يومِها الشتويّ.. أيضاً. وتستمرّ في اختلاق الصور والقصص لِتُلهيَنا عنّا، وعن الجرح الذي نزف من التاريخ والشهداء والأعصاب ما يكفي لتشييد مدينةٍ... أحلى.

وحين نواصل عادتنا الرتيبة في النوم والصحو كنا نكتشفها، مرةً أخرى، وقد جمعتْ حدّيْها وتناقضاتِ الكون.. بلا خجلٍ أو ورعٍ:

في Wall Street ينام مَنْ لا بيتَ له، ومقابل الكنيسة القديمة جلَسَتْ المومس «ماري» وهي تُدخن سيجارةَ «نيوپورت» المنعنعة.. والشوارع تفرّ من الأحذية، والشِعْرُ يفرّ من الدولار والقيمةِ الفائضة والربحِ السريع.

ماركس يهيم على وجهه في «هارلم» (وكانت له صورةٌ ملوّنةٌ عفّرتْها السياراتُ) بينما ينعَمُ آدم سميث بدفءِ غلافٍ فاخر ويُطِلّ على المشهد النيويوركيّ حيث القهرُ المغلّفُ والدينُ المسلَّع وأفلامُ xxx في شارع 42nd.

غزالة بريّة تُغوي الصيّادين وتقتلهم.

ولكنها كانت أيضاً، ويا لَلْفجيعة، تُشرِّد أهلنا وتقتلهم في «العامريّة» والجنوب. تدفعهم نحو قيظٍ جديد من صحراء منفاهم إلى منفى صحرائهم..

نقول لها: يا قدّيسة، يا أمّنا الجديدة، يا قحبة، لماذا؟

لقد كِدنا أن ننسى، في زحام حُطامكِ، جُرْحَنا. فلماذا تعودين إلينا بكل هذه الجثث الجميلةَ على شاشة الـ CNN..؟

تحدِّق في الهواء وتمصّ صَمتها، تَهُزّ رأسَها بحسرة، وتهزّ كتفيها متجاهلةً، وبعد ألف سنة تقول:

ـ لا أدري.. أنا لَستُ حرّة تماماً!؟

ونَغفر لها خطاياها، وتَغفُر لنا خطايانا.. يا للهول.

وتدور.. وتدور..

ـ ٣ ـ

مسرحية من العشق والموتِ والعبث، يتمازجُ فيها الدم والشِّعر، والصخبُ والنوم، والجلاّد والضحية، والقاضي والقضية، والشاهد والشهيد...

كنا نرسل إلى أهلنا صورةَ المدينة: أبنية شاهقة مكهربة في ليل الصيف وقفتْ أمام نهرها. تلك لم تكن نيويورك، لأنّ الشوارع داخل الصورة كانت تغصّ بالقصص، وخلف تلك البنايات كان الوجهُ الآخر: الأجملُ، الأسودُ، القمحيُّ، الأصفرُ، الأبيضُ، العسليُّ، الملوّنُ...

لقد تنفسنا فيها، وكَبُرنا فيها، وعَرَفنا نساءً من قرى المكسيك.. فيها، كي يدخل «زاپاتا» في تاريخنا أيضاً، ونُصبحَ أكثر قدرةً على العويل مع فقراء هذا العالم.

— ٤ —

صباح الخير يا نيويورك..

يا قطاراتٍ تحمل الشغّيلة إلى المصانع والشوارع والحظ، وتحدّث أرضَ المدينة ليلَ نهار، ولا تتعب.

تنقل جيشَ الصحف والروايات المصابة بحمّى القادمين من الفضاء ليدمّروا المدينة..

يا باعةَ الكتب القديمة.. ويا أيها المُغني.. صباح الخير.

وأنتَ أيضاً، يا صاحبَ القيثارة المسكورة، هل جمعتَ ما يكفيكَ من خبزٍ ونبيذ؟

مساء الخير يا نيويورك..

يا قطاراتٍ تعود بالتعب المسيّج بالخوف والحمل الثقيل.

يا باعةَ بطاقات «عيد الحب» والورد.

يا جيشَ المهاجرين الباحثين عن أرقام الهواتف المسروقة، لتقولوا: «آلو.. أيْوا.. تفو على هذا البلد».

وأنتِ، يا امرأةً تعرض فخذيْها لرجال الأعمال والفقراء، هل جمّعتِ ما يكفيك من حزنٍ وحيواناتٍ منوية... وإيدز؟

صباحكم فلّ

مساؤكم قتل!

— ٥ —

لولا تلك المدينة، لما عرفنا أنّ موزارت، كان مجرد أزعر يتزلّف للسلطان.. ولَما عرفنا قرقعةَ سارتر وقلقَ وجوده وهذيانَ سيمون دوبوفوار..

جلجامش نفسه كان في المدينة، وعشتار أيضاً كانت تبيع خواتم الفضة للعشاق... ولم تعد آلهة.

فهل ننكرها.. الآن؟

ألم يكن «رشيد» المغربي معنا ويوقف السيّارات في برودواي، تماماً مثلما فعل «رشيد» اللبناني في «فيلم أمريكي طويل» لزياد الرحباني؟ هل تذكر رشيد المغربي عندما جنّنته الطائرات وهي تقصف بغداد؟ قيل إنّ لعبته المملة هذه قتلته في منهاتن..

لقد عاد مَنْ عاد، ومات مَنْ مات، فهل ننكرها.. الآن؟ ومَنْ سيكتب قصتّنا فيها؟

سماح إدريس؟

لقد عاد هو الآخر بعد أن قطف وردتَه وزرع فيها «سارية». لقد شاكس المدينةَ حتى أُصيب بالإعياء والشوق وعاد.. وكلّ الغضب الذي أفرغتموه، أنتم وهو، خليةَ النحل في جامعة كولومبيا، تلاشى وبلعتْهُ المدينةُ الكبيرة.

لنيويورك علينا حق. أولادُ القحبة، وحدَهم، يُنكرونَ جميلَ الآخرين، وجمالَ الآخرين. ولنيويورك علينا حق.. وثأر في آن.

فهل ننسى ونواصل هذا الرحيل؟ أم نلومها على هذا التيه مُذ هاجر كنعان من حيفا، منفياً، إلى عمان، إلى فينقيا يبني مركباً يصعد به نحو شمس الآلهة؟

كنا مأخوذين بالحلم، نُفكر عكس الأشياء. لكنّ العالم كان أوسع من بطن ذاك الحزبيّ.. الأهبل. أوسع من Central Park، ومقهى «اللانتيرنا» وأفكار «رباب» الغريبة.

لقد أعطتنا نيويورك وأخذتْ، رُبما بأقلّ مما تستحق، وأكثر مما نملك. لكنّ المعادلة، منذ البداية، كانت واضحةً مثل نهار، ومثلَ حُبّ بلا نصر، مثل منفى، مثل نكاحٍ عابرٍ لغريبيْن جَمَعُهما الدربُ ليلةً يتيمة وافترقا بصمت.

لن تَنْفَع حِكمةُ غاليليو.. الآن. لقد وقَع الزلزالُ في أوسلو أو نيويورك: لا فرق بين هزيمة، ومدينةٍ تُهدي الهزيمة وتعيدُ إنتاجها. لقد دارت الأرضُ دورتَها حول المدينة، ودارت المدينةُ حول نفسها، وما زلنا نحن ندور حول ظِلنا.

نحن الذين صَدّقنا، كنا نعيش خارج إنسانيتنا.. لم تمرّ بنا أندلسيةٌ إلا وجعلناها تشرب السمَّ العربيَّ جرعةً تلو الأخرى، على مهلٍ.. على مهلٍ، على مهلٍ.. ويفسد الحب لو كان بدون محاضرة في التاريخ عن تاريخ حُزن القلب! القبلة الأولى تبدأ مع قصة الهجرة الأولى.. وكانت طقوسُ الغاراتِ والدم وانتفاضةُ أرض كنعان مرجعيةَ الجنس والعشق..

لم نبحث عن امرأةٍ تُغْني، بل بحثنا عن امرأة تُغنّي للحروب؛ كنا نفتش عن غراب!

هل تذكُر ذلك الشاب الذي صَفَعَ صديقتَه لأنها لم تعرف «الشيخ إمام»؟ قالت له: أنا أحب فيروز. وكان هو أيضاً يعشق فيروز والشيخ إمام. صار الآن ضابطاً في «الأمن الوقائي» عند (...) جبريل الرجّوب!

لم نَعِشْ ذاتَنا كما كان ينبغي أن نعيش ذاتنا.. لأنّ شيئاً ما فقدناه مع فقدان الأرض.. حتى صيّرونا على هذه الصورة: أليست هذه مأساةً جديدة أن تكتشف أنك كنت أكثر من ضحيّةٍ، وأنّ جلاّداً صغيراً كان يرقد فينا دون أن ندري؟

— ٦ —

أين نيويورك..؟

لقد زرتُها قبل شهرين.. أقول لك: كانت حطاماً. لقد بَدَتْ لي مثلَ شارعٍ ضيقٍ قاومَ ليلةً من القصفِ المُركّز.. ثم نام.

لا شيء فيها.. غيرها. كانت مُتعبةً ومقهورةً. لم أرَ أفقاً.. حتى صاحب القيثارة المكسورة لم يعد هناك؛ شيّدوا مكانه محلاً لبيع الصحف والكوندوم الياباني.

أردت أن «أنْكُشَها»، وذهبتُ إلى حفلةِ جاز في

«البلونوت». ثلاثُ ساعاتٍ من موسيقى الجاز كانت كافية كي أخرج إلى الشارع وأرى ما لم أصدِّقه: نيويورك.

مرةً أخرى، صوت القطارات.. والمومس «ماري»، وباعة الصحف.. وكانت واقفةً مثل آلهة توزِّع الخير على العبيد والقدر.. وكانت تدور تدور تدور.

كندا

أكثر من تفرّغ

باسم زنتوت

بعد ليلٍ طويلٍ من الأحلام المزعجة أستيقظ «أشرف» صباحاً وأخبر زوجته بأنه قرر أن يترك وظيفته ويتفرغ للكتابة. بحلقتْ منى في عينيه، وكأنها كانت تبحث عن شيء في داخلهما: لم تكن تلك المرةَ الأولى التي يثير فيها أشرف هذا الأمرَ. لكنّ المرات السابقة كان يغلب عليها طابعُ التمني، أما الآن، فقد اكتست كلماته عزماً وتصميماً.

كان أشرف قارئاً بامتياز. وقد قرأ مرةً أنّ نهاية القراءة هي الكتابة، ومنذ ذلك الوقت عقَدَ العزمَ على أن يصبح كاتباً. كانت له بعد ذلك محاولاتٌ كثيرة في الكتابة، ولكنْ لم يُكتبْ لها النجاح. ففي كل مرة كان يجلس ليكتب يكتشف أنه لا يجد شيئاً يكتب عنه. وقد ردّ أشرف هذا التعثر إلى نمط حياته: «لا يمكن لأيّ شخص يقضي ثماني ساعات في الوظيفة، ويخرج منها بعد ذلك لقضاء حوائج البيت، أن يأتي آخرَ النهار بذهنٍ صافٍ يمنحه أفكاراً يصفها على الورق. الكتابة تحتاج إلى تفرغ». كانت تلك قناعةَ أشرف التي كثيراً ما كان يردّدها على مسامع زوجته.

بعد أن أبلغ أشرف زوجته بقراره عاد إلى غرفة النوم. لم تجد ما تقوله له، فاكتفتْ بالنظر إليه. بدأتْ عقاربُ الساعة تقترب من الثامنة. اختلستْ منى نظرةً إلى غرفة النوم. لا شيء يدل على أنه ستكون هناك لحظة أخيرة يَعْدل فيها أشرف عن نيته فيتوجه إلى عمله مصطحباً معه الأولادَ كي يوصلهم إلى المدرسة. كان أشرف لا يزال في ثياب النوم وقد بدا عليه الشرودُ. وتجنباً لأيّ جدل، قررتْ منى أن توصل الأولاد بنفسها.

بانغلاق الباب خلف الزوجة والأولاد، استعاد أشرف حريته، فأرخى الحبل لأفكاره.

«كي تكون البدايةُ ناجحةً لا بد من اختيارٍ مسبّقٍ للمواضيع التي ستعالجها رواياتي... أمْ أنها ستكون قصصاً قصيرة؟ لن أشغل بالي بهذا الآن. المواضيع الاجتماعية هي خيرُ ما يمكن أن يعالجه الأدب، فهي الأقرب إلى الناس. لكنْ كيف أعالج هذه المواضيع؟ أبأسلوبٍ جادٍ؟ أم بأسلوبٍ كوميديّ ساخر؟ ماذا لو بدأتُ بمعالجة الأسئلة الفلسفية الكبرى؟ لا بد لكل كاتبٍ من أن تكون له بدايةٌ فلسفيةٌ. ولكنّ القراء لا يستسيغون كلُّهم مثلَ تلك الموضوعات. فالأفضل أن أبدأ بكتابة الخاطرة والتأمل لأنها هي الأقرب إلى ذاتي. ومن جهة أخرى ليس من الحكمة، في هذه المرحلة على الأقل، أن أبدأ بكتابة سيرتي الذاتية؛ فالكتّاب الكبار لم يكتبوا سِيَرَهُم إلا بعد نضوج تجربتهم».

كانت هذه الأفكار ترسم في رأسه دوائر بدا تقاطُعُها فيما بينها أمراً مستحيلاً. تحركّ المفتاحُ في الباب الخارجيّ. أغلقتْ منى البابَ خلفَها وتوجهتْ مباشرةً نحو غرفة النوم. وقفتْ عند الباب تراقب زوجَها يقلّب صفحاتِ كتاب. كان من الواضح أنه لم يكن يقرأ كلمةً واحدة. لم يرفع أشرف نظره إلى زوجته. كان الصمت ثقيلاً لا يعكره سوى حشرجةِ الصفحات المنقلبة. «هل أنت جاد في قرارك تركَ الوظيفة؟» بدأتْ منى. عادت الصفحاتُ لتنفرد بحشرجتها في تعكير الصمت، قبل أن يجيبها أشرف قائلاً:

ـ نعم أنا جاد في قراري.

ـ ألن تتصل بالشركة لتبلغها بالأمر؟

ـ حين يتصلون بي سأخبرهم.

عاد الصمت من جديد. أغلق أشرف الكتاب ووضعه على الطاولة قرب السرير.

ـ أشرف، أنت تأخذ الأمور ببساطة.

ـ أنتِ تضخّمين الأمورَ بغير داعٍ.